الفصل الثانى
أسطـــورة الحيـــة

زعم مؤلفو الأسفار اليهوديَّة أنَّ الله ﷻ بعد أنْ خلق آدم عليه السلام، وزوجه، وأسكنهما جنَّة عدن، نهاهما عن الأكل من ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة، وأغْرَتْ الحيَّة المرأة بالأكل منها ؛ فأكلت هى، وأعطت زوجها، وقبل أنْ نعلِّق على هذه الرواية الكهنوتيَّة نذكر هنا نص عبارة الأسفار اليهودية، من الإصحاحين الثانى والثالث من سفر التكوين، لتتضح معانى التعليق :

الشجرة المحرمة

١٥وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِى جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَهَا وَيَعْتَنِى بِهَا. ١٦وَأَمَرَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلا: «كُلْ مَا تَشَاءُ مِنْ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، ١٧وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لأَنَّكَ حِينَ تَأْكُلُ مِنْهَا حَتْماً تَمُوت».

خلق المرأة

١٨ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: «لَيْسَ مُسْتَحْسَناً أَنْ يَبْقَى آدَمُ وَحِيداً. سَأَصْنَعُ لَهُ مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ». ١٩وَكَانَ الرَّبُّ الإِلَهُ قَدْ جَبَلَ مِنَ التُّرَابِ كُلَّ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ الْفَضَاءِ وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى بِأَى أَسْمَاءٍ يَدْعُوهَا، فَصَارَ كُلُّ اسْمٍ أَطْلَقَهُ آدَمُ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ حَى اسْماً لَهُ. ٢٠وَهَكَذَا أَطْلَقَ آدَمُ أَسْمَاءً عَلَى كُلِّ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْبَهَائِمِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ. ١٢فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ فِى نَوْمٍ عَمِيقٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ ضِلْعاً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَسَدَّ مَكَانَهَا بِاللَّحْمِ، ٢٢وَعَمِلَ مِنْ هَذِهِ الضِّلْعِ امْرَأَةً أَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. ٢٣فَقَالَ آدَمُ: «هَذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِى وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِى.

فَهِى تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِيءٍ أُخِذَتْ». ٢٤لِهَذَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَتْرُكُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَصِيرَانِ جَسَداً وَاحِداً. ٢٥وَكَانَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ عُرْيَانَيْنِ، وَلَمْ يَعْتَرِهُمَا الْخَجَلُ.

سقوط الإنسان

١وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَمْكَرَ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِى صَنَعَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ، فَسَأَلَتِ الْمَرْأَةَ: «أَحَقّاً أَمَرَكُمَا اللهُ أَلاَّ تَأْكُلاَ مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» ٢فَأَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: «يُمْكِنُنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا، ٣مَاعَدَا ثَمَرَ الشَّجَرَةِ الَّتِى فِى وَسَطِهَا، فَقَدْ قَالَ اللهُ : لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَلْمُسَاهُ لِكَى لاَ تَمُوتَا». ٤فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا، ٥بَلْ إِنَّ اللهَ يَعْرِفُ أَنَّهُ حِينَ تَأْكُلاَنِ مِنْ ثَمَرِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا فَتَصِيرَانِ مِثْلَهُ، قَادِرَيْنِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ». ٦ وَعِنْدَمَا شَاهَدَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ لَذِيذَةٌ لِلْمَأْكَلِ وَشَهِيَّةٌ لِلْعُيُونِ، وَمُثِيرَةٌ لِلنَّظَرِ قَطَفَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، ثُمَّ أَعْطَتْ زَوْجَهَا أَيْضاً فَأَكَلَ مَعَهَا، ٧فَانْفَتَحَتْ لِلْحَالِ أَعْيُنُهُمَا، وَأَدْرَكَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ، فَخَاطَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ مِنْ أَوْرَاقِ التِّينِ.

أسطورة الحيَّة

٨ ثُمَّ سَمِعَ الزَّوْجَانِ صَوْتَ الرَّبِّ الإِلَهِ مَاشِياً فِى الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَآ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ الإِلَهِ بَيْنَ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ٩فَنَادَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ: «أَيْنَ أَنْتَ؟» ١٠فَأَجَابَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِى الْجَنَّةِ فَاخْتَبَأْتُ خِشْيَةً مِنْكَ لأَنِّى عُرْيَانٌ». ١١ فَسَأَلَهُ: «مَنْ قَالَ لَكَ إِنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ الَّتِى نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟» ١٢فَأَجَابَ آدَمُ: «إِنَّهَا الْمَرْأَةُ الَّتِى جَعَلْتَهَا رَفِيقَةً لِى. هِى الَّتِى أَطْعَمَتْنِى مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ، فَأَكَلْتُ». ١٣فَسَأَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ الْمَرْأَةَ: «مَاذَا فَعَلْتِ؟» فَأَجَابَتْ: «أَغْوَتْنِى الْحَيَّةُ فَأَكَلْتُ». ١٤فَقَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ بَيْنَ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ، عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ، وَمِنَ التُّرَابِ تَأْكُلِينَ طَوَالَ حَيَاتِكِ، ١٥وَأُثِيرُ عَدَاوَةً دَائِمَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ نَسْلَيْكُمَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ وَأَنْتِ تَلْدَغِينَ عَقِبَهُ».

عقاب الإنسان

١٦ثُمَّ قَالَ لِلْمَرْأَةِ: «أُكَثِّرُ تَكْثِيراً أَوْجَاعَ مَخَاضِكِ فَتُنْجِبِينَ بِالآلاَمِ أَوْلاَداً، وَإِلَى زَوْجِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَتَسَلَّطُ عَلَيْكِ». ١٧وَقَالَ لِآدَمَ: «لأَنَّكَ أَذْعَنْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ، وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا، فَالأَرْضُ مَلْعُونَةٌ بِسَبَبِكَ وَبِالْمَشَقَّةِ تَقْتَاتُ مِنْهَا طَوَالَ عُمْرِكَ. ١٨شَوْكاً وَحَسَكاً تُنْبِتُ لَكَ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. ١٩بِعَرَقِ جَبِينِكَ تَكْسَبُ عَيْشَكَ حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ، فَمِنْ تُرَابٍ أُخِذْتَ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ».

طرد الإنسان من الجنة

٢٠وَسَمَّى آدَمُ زَوْجَتَهُ «حَوَّاءَ» لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَى. ٢١وَكَسَا الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ رِدَاءَيْنِ مِنْ جِلْدٍ صَنَعَهَا لَهُمَا.

٢٢ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: «هَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا، يُمَيِّزُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَقَدْ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَتَنَاوَلُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ وَيَأْكُلُ، فَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ». ٢٣فَأَخْرَجَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْ تُرَابِهَا. ٢٤وَهَكَذَا طَرَدَ اللهُ الإِنْسَانَ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ، وَأَقَامَ مَلاَئِكَةَ الْكَرُوبِيمِ وَسَيْفاً نَارِيّاً مُتَقَلِّباً شَرْقِي الْجَنَّةِ لِحِرَاسَةِ الطَّرِيقِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ».[1].

التعليق :

١ ـ غفل المؤلف العبقريِّ عن جريمته البشعة ؛ فقد صوَّر " الإله " كذَّابا غاشًّا حينما هدَّد آدم وزوجه بالموت حتمًا إذا أكلا من الشجرة، وصوَّر الشيطان صادقًا ناصحًا حين قال لهما لن تموتا بل تنفتح أعينكما على التمييز بين الخير والشر، وبالفعل أكل آدم وزوجه من الشجرة، ولم يموتا، بل انفتحت أعينهما على الحقيقة، فكَذَبَ الإله، وصَدَقَ الشيطان ونَصَحَ، ونسأل ذلك المؤلف العبقرى، ونترك له الإجابة عن السؤال :

مَنِ الَّذى يستحق العبادة من آدم وزوجه إله كذَّاب أو شيطانٌ صادق ؟

---

(١) تكوين ٢ : ١٥ ـ ٢٥، ٣ : ١ ـ.

٢ ـ ليس فى النصوص الدينيَّة المعروفة حيوان يتكلَّم ـ فكيف تكلَّمت الحيَّة ؟ وبأيَّة لغة إنسانية ؟ ومَنْ أكسبها تلك اللغة، وهى ليست معجزة من المعجزات التَّى يأتى بها الله لتأييد أنبيائه ؟ علما بأنَّ فى التراث الدينى الكثير من الحيوانات خلقها الله كمعجزات صحبت رسالة نبى من أنبياء الله تعالى : مثل عصا موسى عليه السلام، وناقة صالح عليه السلام، والطين الَّذى كان يشكِّله سيِّدنا عيسى بن مريم عليه السلام فيصبح طيرا بإذن الله ﷻ... ولم يرو لهذه المعجزات حديث أو كلام.

فكيف فسَّر صهاينة اليهود والمسيحيين هذه الأسطورة ؟

جاء فى تفسيرها فى الشريعة الخطيَّة "ما يدعونه الكتاب المقدس" طبع دار المشرق ببيروت، وتوزيع جمعيَّات الكتاب المقدس فى المشرق سنة ١٩٨٨م فى صفحة ٧٣ الحاشية الأولى ما نصُّه : " تمثِّل الحيَّة هنا كائنا يقاوم الله، ويعادى الإنسان، وهو العدو والشيطان فى نظر سفر الحكمة ثمَّ فى العهد الجديد والتقليد المسيحى (أيوب ١ / ٦)".

ولم يرد فى القرآن الكريم ذكر للحيَّة المزعومة، وتفسير المفسرين المسيحيِّين أنَّ الحيَّة هى العدو، أو الشيطان هو تفسير إسلامى بحت مأخوذ من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا** ﴾[1].

أمَّا قدماء المسيحيين فكانوا يؤمنون بأنَّها حيَّة حقيقية تتكلَّم، وكانوا يسخرون من رواية القرآن الكريم ؛ والدليل على ذلك ما جاء فى ترجمة روبرت الكتونى Robert de Ketton معانى القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية فى سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٣م، بتكليف من بطرس المكرَّم Pierre le Vénérable (١٠٩٢ ـ ١١٥٦) رئيس الدير الكولونى Cluny، وكانت الترجمة غير أمينة، وتركت أثرًا سيِّئًا فى

(١) سورة الأعراف ٧ : ٢٠.

الدراسات الغربية، فقد علَّق واحد من رهبان الدير على معنى هذه الآية الكريمة بكلمتين اثنتين فقط، قال : " كذب وقح "[1].

وقد يقول قائل : جاء فى القرآن الكريم أنَّ النمل تكلَّم فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾[2].

وجاء فيه أنَّ الهدهد تكلَّم فى قوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾[3].

فلماذا لا تكون الحيَّة تكلَّمت ؟

والأمر هنا مختلف تماما عن حديث الحيَّة وذلك لسببين :

الأول : أنَّ الحديث هنا معجزة إلهيَّة لتأييد رسالة نبى من الأنبياء فى دعوته للإيمان والتوحيد، وليس الأمر كذلك بالنسبة لحيَّة آدم ؛ فليس هناك رسالة، ولا دعوة، ولا إعجاز.

والآخر : أنَّ العلم أثبت أنَّ لجميع الكائنات الحيَّة لغة يتفاهم بها أفراد نوعه ؛ فحديث النملة مع أفراد جنسها، وتحذيرها لهم أمر محقق علميا، ولكن الإعجاز ليس فى حديثها، وإنَّما فى فهم سيِّدنا سليمان عليه السلام لغة الحيوان، وهى من نعم الله عليه فقد وهبه الله ملكا لم يهبه لغيره، وعلَّمه منطق الطير، وسخَّر له جنوده من الإنس والجن، قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ۝ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾[4].

---

(١) مقال د / محمد عباس " الحقيقة كما وقعت " نقلا عن كتاب " الغارة على الإسلام " للدكتور ربيع بن محمد، والمقال منشور فى موقع الدكتور محمد عباس فى شبكة المعلومات الدولية " الإنترنت ".

(٢) سورة النمل ٢٧ : ١٨.

(٣) سورة النمل ٢٧ : ٢٢.

(٤) سورة النمل ٢٧ : ١٦ ـ ١٧.

٣ ـ أصبحت المرأة هى الخطيئة الأولى، واستحقَّت الألم والمعاناة، فى الحمل والإرضاع، بعقاب الله لها، وفى الوقت نفسه استحقَّت الإذلال من الرجل، وتتكرر الإشارة إلى ذلك فى أكثر من موضع فى الأسفار اليهوديَّة، من مثل ما جاء فى سفر تثنية الاشتراع : " ٢٨وَإِذَا وَجَدَ رَجُلٌ فَتَاةً عَذْرَاءَ غَيْرَ مَخْطُوبَةٍ فَأَمْسَكَهَا وَضَاجَعَهَا وَضُبِطَا مَعاً، ٢٩يَدْفَعُ الرَّجُلُ الَّذِى ضَاجَعَ الْفَتَاةَ خَمْسِينَ قِطْعَةً مِنَ الْفِضَّةِ وَيَتَزَوَّجُهَا، لأَنَّهُ قَدِ اعْتَدَى عَلَيْهَا. وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يُطَلِّقَهَا مَدَى حَيَاتِهِ. "[1].

ومن المؤسف أنَّنى كنت قد بدأت قراءة " الشريعة الخطيَّة " من النشرة الكاثوليكية لجمعيَّات الكتاب المقدس فى بيروت، وقد اخترتها للشروح الَّتى فى حواشيها، وكتبت تعليقاتى بناء على نصوصها، ولكنَّنى عند كتابة هذا البحث كنت أنقل النص من طبعة الروم الأرثوذكس "كتاب الحياة" الَّذى وجدته على "الإنترنت"، وفوجئت بأنَّ تعليقاتى لا تتفق مع النص المنقول، فقد علَّقت على المقولة السابقة بعبارة :

"الواضح من النص أنَّ المهر والزواج والإمساك لمجرَّد الإذلال، ولتظل المرأة منكسة الرأس بفعلتها طوال حياتها، وليس الزواج هنا تصحيحا للخطأ، أو رعاية للحرمة، أو تكفيرا عن الذنب".

ولمَّا لم أجد التعليق متفقا مع النص المنقول رجعت إلى طبعة بيروت، فوجدت العبارت كالآتى[2]: " وَإِذَا صَادَفَ رَجُلٌ فَتَاةً عَذْرَاءَ لَمْ تُخْطَبْ، فَأَمْسَكَهَا وَضَاجَعَهَا، فَوُجِدَا مَعاً، فَلْيُعْطِ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُضَاجِعُ لَهَا لأَبِى الْفَتَاةِ خَمْسِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، وَتَكُونُ لَهُ امْرَأَةً، لأَنَّهُ أَذَلَّهَا، وَلاَ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا كُلَّ أَيَّامِهِ. "

فانظر الفروق الجوهريَّة بين الترجمتين، وكيف حذفت الترجمة الأرثوذكسية كلمة "أذلها" وأعادت صياغة العبارة "لأنَّه اعتدى عليها" وكأنَّ الإذلال والاعتداء بمعنى واحد، وقد واجهتنى هذه المشكلة فى كل النصوص الَّتى استشهدت بها.

---

(١) تثنية الاشتراع ٢٢ : ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) النص بالبيانات السابقة فى ص ٣٩٢ من طبعة بيروت.

وعلى قدر إذلال المرأة وإيذائها يكون الرجل اليهودى والمسيحى قريبا من الله، وأصبح الرجل اليهودى والمسيحى يتترَّس بها ويدَّرِع، ويقف من خلفها، ويحمى نفسه بتقديمها للمخاطر، ويسخر منها بعُرْيِهَا وكَشْفِ جسدها باسم "المودة La Mode"، والسير من ورائها ؛ ليتفرَّج عليها، وعلى أردافها، وهو الإذلال بعينه، يفعل ذلك باسم الرقى والتقدُّم أو" الإيتيكيت L'Étiquette " ؛ فاللاَّهوت المسيحى فى مراحله الأولى ينص على " أنَّ مصدر العار هو المرأة، ومصدر العناء فى الجهاد هو المرأة، ومصدر الوجود الدنيوى هو المرأة، وإذًا فإيَّاك والمرأة "[1].

وإذا كانت المرأة ـ فى ثقافة صهاينة اليهود والمسيحيين ـ قد استحقَّت الإذلال لأنَّها أغوت آدم ﷺ، وتسببت فى إخراجه من الجنَّة فإنَّ للمرأة فى الثقافة الإسلامية شأنًا آخر، مناقضًا تمامًا لهذه الصورة الكريهة من المعاملة غير الإنسانية.

فى الإسلام الَّذى يتحمَّل المسئوليَّة هو آدم ﷺ قال تعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[2].

والمرأة فى الإسلام مصانة محصنة فى حماية الرجل، وهو مسئول عنها، وعن حمايتها، ويقدم نفسه دفاعا عنها، وحفظا لها ؛ فهى شرفه وعرضه، ومن مات دون عرضه فهو شهيد.

٤ ـ فى النص إشارة صريحة إلى تعدد الآلهة " كواحد منا " غير أنَّهم خالدون، ولو تركوا الإنسان يأكل من شجرة " الحياة " لأصبح خالدا مثلهم، وكان هذا هو السبب الرئيس فى طرد آدم وزوجه من الجنَّة، وخوفا من أنْ يتمكَّن آدم من خداعهم والوصول إلى الشجرة المحرَمة فى غفلة منهم فقد أقاموا حراسة مشدَّدة عليها، حراسة مزدوجة من : ملائكة الكروبيم ـ وتكتب أحيانا بالنون بدلا من الميم ـ وشعلة سيف متقلِّب تقطع الطريق على من يحاول الوصول إلى شجرة الحياة.

---

(١) قصة الحضارة ٣ / ١٧٨.

(٢) سورة طه ٢٠ : ١٢٠ ـ ١٢١.

٥ ـ كما يشير النص إلى الصفات البشريَّة التى تتصف بها الآلهة ؛ فالإله هنا يجهل ما يدور من حوله، فيسأل عما لا يعرف، وسوف نرى أنَّ هذا التشخيص الوثنى أثر من آثار الأساطير القديمة فى الشرق والغرب على السواء، ويتكرر هذا التجسيم فى كل أسفار اليهود.

٦ ـ ليس للحيَّة أىَّ سند دينى ؛ فقد أخذ أحبار اليهود فكرة الحيَّة من الأساطير السومرية القديمة، بعد الكشف عن نقش تظهر فيه بوضوح هذه الأسطورة ؛ فقد أظهرت المكتشفات الحديثة أنَّ قصَّة آدم وحوَّاء، بما فيها قصَّة جنة عدن قصة قديمة ترجع جذورها إلى عهود ما قبل الأسفار اليهودية، فى نقش سومرى وُضِعَ قبل التوراة بألفى عام، فقد نقل الدكتور أحمد سوسة الصورة الآتية عن كتاب :
Ward W. H. ; The Seal Cylinders of Western Asia ; ١٩١٠.

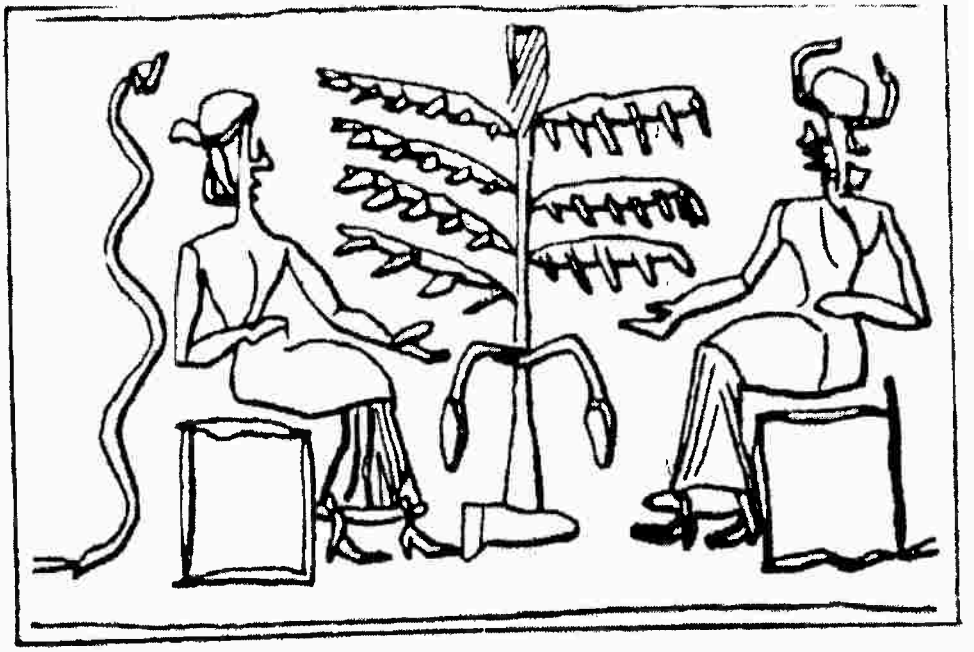

الصورة رقم (٧٦)

قصة آدم وحواء وإغراء الحية لهما على نقش سومرى

ويبدو فى الصورة رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين، وامرأة حاسرة الرأس، جالسين الواحد أمام الآخر، وقد نبتت شجرة بينهما تشبه النخيل تدلَّى منها عذقان، الرجل مادٌّ يده اليمنى نحو العذق الَّذى أمامه ؛ ليقطف من ثمره، والمرأة مادَّة يدها اليسرى نحو العذق الَّذى أمامها ؛ لتقطف من ثمره أيضا، وتشاهد الحيَّة وهى منتصبة على ذنبها خلف المرأة ؛ تغريها بالأكل من الثمر المحرَّم عليها أكله.

ويرى ول ديورانت فى هذه الحيَّة رمزًا لإجلال الإنسان البدائى الوظيفة الجنسيَّة من آلهتهم ؛ " لأنَّهم يرتبطون ارتباطًا وجدانيًّا بالخصوبة فى المرأة وفى الأرض، ولذلك عبدوا بعض الحيوان كالعجل والثعبان لأنَّ لهما ـ فيما يظهر ـ القوَّة الإلهيَّة فى الإنسال، أو قل : إنَّهما يرمزان لتلك القوَّة، فلا شكَّ أنَّ الثعبان فى قصَّة عدن رمز جنسى، يمثِّل العلاقة الجنسيَّة باعتبارها أساس الشرِّ كلِّه، ويوحى بأنَّ اليقظة الجنسيَّة هى بُداءة الخير والشر، وربَّما يشير كذلك إلى علاقة أصبحت مضرب الأمثال بين سذاجة العقل ونعيم الفردوس "[1].

وهذا التفسير الرمزى لأسطورة الحيَّة يؤكِّد ارتباطها بالأسطورة السومريَّة، وأنَّه لا علاقة لها بقصَّة الخلق كما رواها اليهود، والدليل على ذلك أنَّ اليهود أنفسهم قدَّسوا الحيَّة ؛ وادَّعوا أنَّ تلك القدسيَّة بسبب أنَّ إلههم يهوه كلَّف نبى الله موسى عليه السلام بصنعها، ونَصْبِها لهم :

الحية النحاسية

٤وَارْتَحَلُوا مِنْ جَبَلِ هُورٍ عَنْ طَرِيقِ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ لِيَدُورُوا حَوْلَ أَرْضِ أَدُومَ فَأَعْيَتْ نَفْسُ الشَّعْبِ فِى الطَّرِيقِ، ٥وَتَذَمَّرُوا عَلَى الله وَعَلَى مُوسَى قَائِلِينَ: «لِمَاذَا أَخْرَجْتُمَانَا مِنْ مِصْرَ لِنَمُوتَ فِى الصَّحْرَاءِ، حَيْثُ لاَ خُبْزَ وَلاَ مَاءَ؟ وَقَدْ عَافَتْ أَنْفُسُنَا الطَّعَامَ التَّافِهَ». ٦فَأَطْلَقَ الرَّبُّ عَلَى الشَّعْبِ الْحَيَّاتِ السَّامَّةَ، فَلَدَغَتِ الشَّعْبَ، فَمَاتَ مِنْهُمْ قَوْمٌ كَثِيرُونَ. ٧فَجَاءَ الشَّعْبُ إِلَى مُوسَى قَائِلِينَ: «لَقَدْ أَخْطَأْنَا إِذْ تَذَمَّرْنَا عَلَى الرَّبِّ وَعَلَيْكَ، فَابْتَهِلْ إِلَى الرَّبِّ لِيُخَلِّصَنَا مِنَ الْحَيَّاتِ». فَصَلَّى مُوسَى مِنْ أَجْلِ

---

(١) قصة الحضارة ١ / ١٠٦.

الشَّعْبِ، ٨فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اصْنَعْ لَكَ حَيَّةً سَامَّةً وَارْفَعْهَا عَلَى عَمُودٍ، لِكَى يَلْتَفِتَ إِلَيْهَا كُلُّ مَنْ تَلْدَغُهُ حَيَّةٌ، فَيَحْيَا» ٩فَصَنَعَ مُوسَى حَيَّةً مِنْ نُحَاسٍ وَأَقَامَهَا عَلَى عَمُودٍ، فَكَانَ كُلُّ مَنْ لَدَغَتْهُ حَيَّةٌ، يَلْتَفِتُ إِلَى حَيَّةِ النُّحَاسِ وَيَحْيَا. "[1].

وصورة الأفعى الَّتى وجدت فى أقدم آثار اليهود تدلُّ على أنَّهم عبدوها، وذلك لأنَّها رمز الذكورة المخصبة من جهة، ولأنَّها من جهة أخرى تمثِّل الحكمة والدهاء والخلود ـ فضلا عن القدرة لأنَّها تستطيع أنْ تجعل طرفيها يلتقيان[2].

وكتب الأستاذ حسنى يوسف الأطير فصلا ممتعا عن العقوبات الخاصَّة بالحيَّة تعليقًا على ما جاء فى الأسفار اليهودية، هذا ملخَّصه[3]:

۞ أنزل الله بالحيَّة أربع عقوبات :

العقوبة الأولى : اللعنة وهى الطرد من رحمة الله ؛ فتصبح منبوذة عن سائر خلائق الأرض من حيوان وإنسان.

العقوبة الثانية : السعى على بطنها، وهذا يعنى أنَّها لم تكن تسعى على بطنها قبل إنزال العقوبة بها، بل كانت على نقيض ذلك لها أرجل أو قوائم تمشى بها.

ويبدو أنَّ النص السامرى للشريعة الخطيَّة أوفق للمعنى ومدلول السيَّاق من النسخ المتداولة، وفيها ـ يوجِّه الحديث إلى الثعبان الذكر ـ " بطنك تسعى، وترابًا تأكل أيَّام حياتك " فيكون إخبارًا عن كون الحال فى سعيه ببطنه على ما هو عليه، ولن يحصل مع بذل الجهد إلاَّ على الخسارة والانكسار، وردِّ جوعه بالتافه الدنىء مما يكرهه، وتعافه نفسه.

يجمع اليهود والمسيحيون على القول بنُزُول العقاب بالحيَّة باعتبارها رمزًا للشيطان الَّذى هو الفاعل الحقيقى، والمحرِّض على الجريمة ۞ فإذا كان إبليس ـ أو الشيطان ـ كائنًا حقيقيًّا ذا وجود واقعى.

---

(١) العدد ٢١ : ٤ ـ ٩.

(٢) قصة الحضارة ٢ / ٣٣٩.

(٣) المواجهة بين القرآن والإسرائيليَّات ٢٥٢ ـ ٢٦٨.

۞ وإذا كانت الحيَّة ـ أو الثعبان ـ حيوانًا حقيقيًّا ذا وجود واقعى.

فالناتج إذن أنَّنا أمام كائنين حقيقيين منفصلين كل منهما عن الآخر انفصالا حقيقيًّا :

فكيف يكون إنْزال العقاب بأحدهما عقابًا للآخر المباين له ؟ وإذا كانت الحيَّة رمزًا ـ فهل إنْزال العقاب بالرمز عقاب لما يرمز له أيضًا ؟

وهل للحيَّة عقل تفكِّر به، وتنخدع لقول عدوِّها ؟ ونحن نعلم أنَّ جميع الكائنات خلقت بالأمر " كُنْ " إلاَّ الإنسان الَّذى سوَّاه الله بيديه ونفخ فيه من روحه، وحمَّله الأمانة، كما قال تعالى فى محكم كتابه : ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[1]، أو كما زعموا هم فى أسفارهم : " ٢٦ثُمَّ قَالَ اللهُ : «لِنَصْنَعِ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا، كَمِثَالِنَا، فَيَتَسَلَّطَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ، وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ، وَعَلَى الأَرْضِ، وَعَلَى كُلِّ زَاحِفٍ يَزْحَفُ عَلَيْهَا». ٢٧فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَراً وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. "[2].

كان تحذير الله آدم وزوجه من وسوسة الشيطان باعتباره عدوًّا لهما ـ فهلَّ حذَّر الله جميع الحيوانات أيضا من الشيطان، فيحقَّ عليها العقاب إذا عصت الأمر، وهل كان هناك عداء بين الحيَّة والشيطان ؟

وما سبب ذلك العداء بينهما ؟

كيف تكون الحيَّة أو الثعبان رمزًا للشيطان، أو لسلطان الشر وقد كانت هى معجزة سيِّدنا موسى عليه السلام يوم أقبل إلى فرعون، ويوم واجه السحرة، ويوم أقام تمثالها النحاسى للاستشفاء بالنظر إليها بزعمهم، أتراه كان يلقى عصاه لتصير رمزًا لسلطان الشر الأكبر، لينتصر به على فرعون ؟ وهل يدعو الَّذى يستعين برمز الشيطان إلى خير ؟.

---

(١) سورة السجدة ٩ : ٩.

(٢) تكوين ١ : ٢٦ ـ ٢٧.

بل إنَّ المسيح ﷺ نفسه نصح حواريه قائلاً لهم : "١٦هَا أَنَا أُرْسِلُكُمْ مِثْلَ الْخِرَافِ بَيْنَ الذِّئَابِ، فَكُونُوا مُتَنَبِّهِينَ كَالْحَيَّاتِ وَمُسَالِمِينَ كالْحَمَامِ."[1] فهل كان يدعوهم إلى أنْ يكونوا أشرارا خبثاء كرمز الشيطان ؟

وملخَّص الكلام أنَّ الحيَّة ضحيَّة، لا ذنب لها : فلم يحذِّرها الله من كيد الشيطان، ولم يأتها عقلا وتمييزًا، ولا تغيير فى خلقها، ولا عقوبة عليها أصلاً كما يزعمون، وإنَّما هو استمداد أسطورى بحت، لا أصل له من خبر صحيح، أو بيِّنة محققة.

العقوبة الثالثة : الاغتذاء بالتراب، وهو قول مضحك حقًّا ؛ فغذاء الحيَّات معروف : صغار الحيوانات، والطيور، والأسماك... وما علمنا التراب غذاءً لها، أو لغيرها، ولعل كاتب هذا السفر أراد أحد أمرين :

الأمر الأوَّل : أنْ يكون الكاتب رأى بعض الحيَّات تعتصر الطين لتستخرج منه الحشرات، أو الديدان، أو آثار اللحوم لتغتذى به، فظنَّها تأكله، وإنَّما هى تأكل ما علق به، ولا يكون فى ذلك عقوبة بالنسبة لها لأنَّ العقوبة أنْ يرغم المعاقَب على ما يكره، والحيَّة ليست مكرهة على اعتصار التراب، بل تجد لذَّة ومتعة فى ذلك ؛ لأنَّها تتغذَّى به.

والأمر الآخر: أنْ يكون المعنى مجازيًّا على اعتبار أنَّ العقاب حلَّ بالشيطان بعد أنْ عاد إلى طبيعته، ونزع عنه جلد الحيَّة، فوجب أنْ يعاقب أقسى عقوبة، وأشدَّها، وأذلَّها حتَّى يصبح أنفه ملتصقاً بالرغام.

فإذا كان المراد المعنى الأول أو الثانى ففى الحالتين لا تغيير فى خلق الحيَّة أو طبيعتها، ولا تعديل أيضًا فيما جُبِلَتْ عليه من جنس الطعام.

العقوبة الثالثة : إلقاء العداوة بينها وبين بنى البشر، وزعم مفسرو النص من اليهود والمسيحيين أنَّه يمثِّل الصراع اليومى بين أىِّ إنسان وحيَّة، حيث لا يتردد فى شدخ رأسها بأىِّ حجر، أو أداة تدركها يداه، وبيَّنوا أخطار الحيَّات فى البلاد الَّتى

---

(١) متى ١٠ : ١٦.

تكثر فيها، وتأهُّب الإنسان لسحقها بمجرَّد استشعاره لها، بينما هى تترصَّد للدغه فى " عقبه " أى : مؤخر قدمه على قولهم، وهذا تفسير سطحى ساذج ينم عن حمق وجهل، وخلط بين الرمز والمرموز إليه، ويتعيَّن أنْ نفسِّر النص، وننظر إليه على مستوى آخر، وهنا تفسيران : إسلامى، ومسيحى.

التفسير الإسلامى: أنْ يقصد بالرأس الفكر والتدبير؛ فالإنسان مستعينًا بالوصايا الإلهيَّة سيحبط كيد الشيطان ويفسد خططه وتدبيره، وهذا وعد من الله ﷻ منذ بدْء الخليقة، قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

وأمَّا مقولة " وأنت تسحقين عقبه " فهو بيان لمهمَّة الشيطان فى تعقُّب الإنسان، والترصُّد له بالتجربة والامتحان، وهذا أيضا وعد من الله ﷻ منذ بدْء الخليقة، قال تعالى:﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2].

ومعنى العقب هنا : النسل والذريَّة ؛ وبذلك يصبح المعنى أنَّ الشيطان بعد أنْ أدَّى مهمته بالنسبة للأبوين، أصبح عليه أنْ يستكملها بعد ذلك فى نسلهما.

التفسير المسيحى : زعموا أنَّ المرأة هنا هى العذراء مريم الناصرية أم المسيح، وزعموا أيضًا أنَّ نسل المرأة هو المسيح عليه السلام نفسه ؛ فكأنَّها نبوءة بمجىء المسيح ابن الله الَّذى يقهر إبليس، ويسقط تدبيره، ويكفِّر عن خطيئة آدم وزوجه، وفى هذا المقام يثار سؤالان :

لماذا جاء المسيح فى صورة بشرية ؟

وهل الخلاص لا يتحقَّق إلاَّ بالمسيح وحده، دون غيره ؟

---

(١) سورة البقرة ٢ : ٣٨.

(٢) سورة الأعراف ٧ : ١٤ ـ ١٨.

۞ الإجابة عن السؤال الأول : جاء المسيح بن مريم متخفِّيًا فى صورة بشرية ـ مع أنَّه إله، وابن إله، وأمَّه إلهة أيضا ـ مكرًا بالشيطان ـ بزعمهم ـ واستغفالا له، حتَّى لا يعرفه، ويكتشف غايته فى رفع خطيئة آدم ؛ فيحبط الشيطان خطتَّه، ويفشل تدبيره، وتبقى البشرية تتحمَّل أوزار خطيئة أبيها آدم[1].

أرأيت إلى هذه الحفلة التنكُّريَّة الكونيَّة، وكأَّن الله ﷻ يعمل للشيطان ومكره ألف حساب، ويخاف الله ﷻ من أنْ يفسد الشيطان تدبيره وهو الخالق، وكأنَّ للشيطان القدرة على تعليق مشيئة الله، وردِّ سلطانه، وكشف إرادته، وكأنَّ الشيطان يعلم ما فى نفس الله ـ تمامًا كعلم الله ما فى نفس الشيطان ؛ فلا بدَّ أنْ يلعب معه لعبة الاستخفاء هذه ـ أو لعبة الاستغمَّاية كما كنَّا نسميِّها ونحن أطفال ـ ومع كل هذه الاحتياطات فقد كشف الشيطان ستره وعرف سرَّه، وأخضعه للامتحان والاختبار فى البريَّة كما سنبيِّنه فى حديثنا عن رسول الله، وعبده المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

۞ الإجابة عن السؤال الثانى : إنَّما يتحقَّق الخلاص به وحده، دون غيره من جميع الكائنات ؛ لأنَّه إله، والإله وحده هو الَّذى يستطيع رفع خطيئة آدم التَّى لا نهاية لها، والتكفير عنها بقدرته الَّتى لا نهاية لها، بينما لا يستطيع ذلك الإنسان ؛ لأنَّه مخلوق متناه محدود.

وإنَّما صارت الخطيئة لا نهاية لها ؛ لأنَّها وقعت فى حق الله الَّذى هو وجود مطلق، غير متناه، فلا يكفِّر عنها أمامه إلاَّ إله مثله، معادل له من عين جوهره وطبيعته، ووجوده مثل وجوده من حيث هو مطلق لا متناه، وبموت المسيح معلَّقًا على الصليب يكون قد قدَّم الفداء عن آدم وذرِّيَّته إلى الإله الآب الَّذى وقعت فى حقِّه الخطيئة، فتمَّت الكفَّارة، وخلص بذلك من آمن بهذا الاعتقاد[2].

ولنا عودة مرَّة أخرى للحديث عن أسطورة الفداء هذه، وبيان ما فيها من مخالفة للعقل والمنطق، وما فيها من هدم لجميع الأديان والعقائد والشرائع، وما

---

(١) المواجهة ٢٦٢.

(٢) المواجهة ٢٦٢.

تمثِّله من افتراء على الله وعلى رسله، حتَّى أنَّ كثيرا من المسيحيين بدءوا يخجلون من هذه المقولة، ويتنصَّلون منها، وذلك فى الفصل السادس، ونحن نتحدَّث عن المسيح عليه السلام.

وفى الحقيقة تحتلُّ الحيَّة مكانة خاصَّة فى الديانات والعقائد القديمة، لدى جميع الشعوب فى الشرق والغرب، على السَّواء، ومن أمثلة ذلك :

۞ كان الملك فى مصر القديمة يرسم على رأسه الصقر رمز حورس وشعار القبيلة، وتعلو جبهته الأفعى رمز الحكمة والحياة وواهبة القوى السحريَّة للتاج[1].

۞ فى ملحمة جلجميش : ندمت الآلهة على ما سببه الطوفان من دمار، وأبقت على جلجميش وزوجه، وخلَّدتهما ؛ لأنَّهما أنجيا النوع الإنسانى من الفناء، وقدَّمت إليه نبتة تجدد ثمارُها شبابَ من يأكلها، وأثناء عودته وقف فى طريقه ليستحم، وبينما هو يفعل هذا إذْ تخرج إليه أفعى، وتسرق النبتة، وكان كثير من الأقدمين يعبدون الأفعى، ويتخذونها رمزًا للخلود وذلك لقدرتها الظاهرة على الفرار من الموت بتبديل جلدها[2].

ونجد فى أساطير العالم نماذج كثيرة تتخذ من " الحيَّة، أو الثعبان، أو التنِّين " رمزًا يجسِّمُ قِيَمًا إنسانيَّة، ويعبِّر عن تطلُّعات البشر إلى أنْ يحقِّقوا السعادة لأنفسهم ؛ فيجدون الأمن بعد خوف، والراحة بعد تعب والاستقرار بديلا من الفوضى، والهداية عوضًا عن الضلال ؛ لذلك نجد أنَّ رمز الثعبان قد نجده فى مجال الخوف، والهلاك، والحبس، وجميع صنوف الظلام والشر، وفى الوقت نفسه نجده فى مجال الحياة، والبقاء،

والخلود، وجميع صنوف النور والخير.

ففى الأساطير المصريَّة القديمة نجد الثعبان رمزًا لنحو ثلاثة عشر إله أو إلهة، تتعارض فيها الدلالات وتتنوَّع، وكلُّها تعبِّر عن الروح الإنسانيَّة الوثَّابة، الساعية إلى الرقى، والكمال، وأكتفى هنا ببعض من تلك النماذج :

---

(١) قصة الحضارة ٢ / ١٦١.

(٢) المصدر السابق ٢ / ٢٤٣.

۞ أبوفيس " أو أبو بيس " : ثعبان ضخم، طوله نحو اثنين وخمسين مترًا تتخلَّل جسمَه كثيرٌ من الثنايا والتعرُّجات، يعمل ليلاً ونهارًا لتدمير "رع" إله الشمس، فهو يمثِّل مبدأ الظلمات الَّذى يهدِّد دائمًا وأبدًا النور والضياء، وكان لا بدَّ لابن الإلهة باستت من الإطاحة برأس الثعبان كلَّ مساء لتمرَّ مركب رع منتصرة ظافرة، ويتكرَّر كلَّ ليلة هذا الصراع بين

الخير والشر ؛ والأسطورة تجسم " الخواء البدائى حتَّى إذا دُمِّرَ فإنَّه لا يتوقَّف أبدًا عن تهديد تناغم العالم، وتناسقه. أى أنَّ : كلَّ نصر يتم إحرازه عل هذا الخواء والفوضى هو أمر مؤقَّت فقط "[1].

۞ وكانت " أفعى الجبل " المنتمية إلى الإله "ست" ترمز إلى المقاطعات ١٢، ١٣ ، ١٤ من مقاطعات مصر العليا[2].

۞ فى الأساطير المصرية "أوربورس Ourobouros" الثعبان الَّذى يلتهم ذيله، فيكوِّن دائرة، يتراءى بداخلها طفل يمصُّ أصبعه " الإبهام " ؛ وهو رمز للإلهين "رع، ونفرتوم"، أىْ : كائن ما فى بدْء تكوينه، هو رمز وعلامة للحياة إنَّه يجمع كلاًّ من مبدأىْ : الخصب المتعلِّق بأوزيريس، ومبدأ الموت ثمَّ التجدُّد الَّذى يعمل " ست " على انعاشه، وتأججه، وربَّما قد يبدو هذا الأوربورس مدمِّرًا ومهلكًا، ولكنَّه على أيَّة حال منقِّى، ومطهِّر للمادة، فمن خلال هذا الثعبان المعبِّر عن الأبديَّة والخلود يتصالح الأخوان (أوزيريس وست) من أجل أنْ يحقِّقا مسيرة الحياة وسياقها اللانهائىِّ[3].

۞ الثعبان فى الأساطير المصرية، يقول روبير ـ جاك تيبو : فوق الربوة الأزليَّة كانت تستقر أربعة ضفادع (المبدأ الذكورى) وأربع حيَّات (المبدأ الأنثوى) أصل جميع الآلهة، ومنبتها ـ أو كلِّ أنماط الحياة، والثعبان يعتبر رمزًا جهنَّميًّا، ينتمى إلى

---

(١) موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية ١٣، ومعجم أعلام الأساطير والخرافات ٩.

(٢) موسوعة الأساطير ٣٦.

(٣) موسوعة الأساطير ٥٤.

العالم السفلى، والدنيوى، وهو ذو نفع وفائدة، وهو أيضًا ضار وشؤم، يأتى بالخير، ويسبِّب الهلاك، يحمى الآلهة والبشر، ويهاجمهم.

لقد تولَّد الثعبان من داخل بيضة أضفت عليها الشمس بدفْئها فهو يبدو وكأنَّه انبثق من الأرض مثلما انبعث العالم فى يوم ما من الخواء وقد لجأ "ست" إلى بعث أحد الثعابين لمهاجمة أخيه "أوزيريس " فى محاولة

للقضاء عليه، وفيما بعد، شُبِّهت الحركة المتماوجة الَّتى تبدو فى تلاطم الأمواج بتلوِّى ثعبان هائل ضخم، ومع ذلك فإنَّ ثعبانا آخر هو الَّذى حمل مركب أوزيريس الجنائزى على ظهره، وبفضله وصل مركبه فى نهاية الأمر إلى بر الأمان المقدَّر الوصول إليه.

فى تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً على الإله "رع" أنْ يقطع زاحفًا نفقًا على شكل ثعبان طوله نحو ٧٣٠ متر، ومثله كمثل المتوفَّى خلال رحلته الليلية يمرُّ الثعبان بالكثير من التحولات والانسلاخات طوال حياته ولذلك اعتبر رمزًا لدورات تحولات الروح البشريَّة[1].

❁ ومن أكثر الرموز المصرية " الحيَّة الحامية أوريوس، وتعنى "إيارات **Iaret**" أى الَّتى تستشيط غضبًا، إنَّها الثعبان الكوبرا الأنثى، وترمز إلى مصر السفلى، وتمثَّل غالبًا منتصبة، منتفخة الأوداج، على وشْك الانقضاض والهجوم، وألسنة اللهب تتطاير من حلقها، وتعتبر الكوبرا رمزًا للهمَّة والتيقُّظ، فهى تراقب فريستها ساعات طويلة، بلا حراك إلى أنْ تقتنصها، وهى "ابنة رع وعينه" تشير إلى القوَّة والتوقُّد والحيويّة المقتلة ولذلك كان ملوك مصر يضعونها دائما فوق جباههم بجوار النسر رمز مصر العليا.

وفى الكتابة الهيروغليفية تدمج كلمة كوبرا فى تكوين كلمة "إلهة" ويدل ذلك على الجمع بين هذين الجوهرين؛ وغالبا ما نرى الربَّات الإناث ـ أمثال : إيزيس،

---

(١) موسوعة الأساطير ١٠٣.

وحتحور، وسخمت ـ يتحلَّين فى صورة الكوبرا، ويتخفَّين فى هيئتها، ومن هذا المنطلق تعبِّر الحيَّة الحامية عن العنف الدفاعى الكامن فى المبدأ الأنثوى، وعن مقدرته على الفتك أو الحماية، وفى مصر القديمة قد تتراءى الإلهات والملكات وبعض الشخصيَّات الأنثويَّة فى هيئة ربَّات محاربات ومقاتلات وراعيات[١].

۞ كيهاتف : ثعبان مجنَّح، وهو روح العالم، ويمثِّل العلاقة بين "جب" ـ إله الأرض، و"نوت" ـ ربَّة السماء ـ فهو يعبِّر عن ثنائيَّة الأرض والسماء الَّتى تشكِّل بنية الفكر المصرى القديم وأساسه، وهو الَّذى يتمِّم دورات الزمن، لم يكن يمثَّل إلاَّ فى داخل المقابر، فمن خلاله تتجلَّى الطاقة الجبَّارة الَّتى تساعد الميَّت على مواصلة تجاربه فى العالم الآخر المعروف باسم "الدوات"؛ فالمتوفَّى يتشبَّث بكل قواه بجناحى كيهاتف، ويستعين بقوَّته الفائقة ليرتفع نحو السماء، فيزور عالم السماء المنير[٢].

۞ من خلال "لعبة الثعبان" يحاول "محن" ـ الثعبان المكلَّف بابتلاع الشمس الغاربة، كل يوم ـ الخروج من الدائرة المقفلة، لغرض "التولُّد من جديد" مثلما تفعل الشمس كل يوم، وتعتبر هذه الدورة بمثابة إحدى التصورات الموغلة فى القدم عن جولان الروح فى مسار "الدوات" وعبوره بل هى تعد أيضا صورة مسبَّقة للأوروبورس وجميع المتاهات الرمزية الأخرى[٣].

۞ ولمَّا كانت " أفعى الجبل " ترمز إلى بعض مقاطعات مصر العليا، فكذلك كانت الربَّة الثعبان "أوتو" رمزا لمصر السفلى الَّتى كانت تتكوَّن من ست عشرة مقاطعة أولاً، ثمَّ قسِّمت عشرين مقاطعة على هيئة لولبيَّة تشبه ثعبانًا ملتفًا على نفسه[٤]، كما كانت بعض الثعابين الضخمة تقوم على حراسة الأبواب، والممرات، والدهاليز[٥].

---

(١) موسوعة الأساطير ١٣٣.
(٢) المصدر السابق ٢٧٤.
(٣) موسوعة الأساطير ٢٨٨.
(٤) المصدر السابق ٢٩٩.
(٥) نفسه ٣٤٤.

وكما كان الثعبان أحد الآلهة المصريَة فلا تكاد نجد ديانة قديمة فى الشرق أو فى الغرب خلت من عبادة الثعبان، ومن أمثلة تلك الآلهة[1]:

أبالالا : ثعبان كبير فى الأساطير البوذية ـ أنانتا الأفعى الكونية فى الأساطير الهندوسيَّة ـ أخيدنا فى الأساطير اليونانية ـ أذى داهاك فى الأساطير الفارسية ـ إيديوهويدو ثعبان قوس قزح فى أساطير داهومى ـ ومن الآلهة الثعبان فى أساطير العالم[2]:

❁ إيريال Eyryale : إحدى الجورجونات الثلاث فى الميثولوجيا اليونانية كانت ضفائرهن من الأفاعى، وعيونهن تحوِّل الناظر إليهن إلى حجر.

❁ باسلسك : أفعى مخيفة سامَّة فى الأساطير الأوربية.

❁ بان كو : الإنسان الأوَّل فى الأساطير الصينيَّة، ولد من بيضة كونيَّة على حافَّة العالم، وانقسمت البيضة عند ولادته إلى قسمين، وأصبح القسم الأعلى منها السماء، والقسم الأسفل الأرض، وخرج بان كو وله رأس تنِّين وجسم أفعى، ونما بسرعة، وعاش طويلاً، وعندما مات صارت أنفاسه الرياح والسحب، ودمه الأنهار، وعرقه الأمطار، وعظامه الصخور، وأسنانه المعادن، وشعره الأشجار، ولحمه الأرض، ورأسه الجبال، وعينه اليسرى الشمس، وعينه اليمنى القمر، أمَّا الحشرات الَّتى كانت تزحف على جسمه فأصبحت البشر.

❁ بوليانكا Polianka : التنين فى أساطير الحثيين.

❁ جيجانتس Gigantes : وحوش لها أجسام الأفاعى ورءوس البشر، ولدوا من دماء أورانوس عندما ضربه ابنه كرونوس بالمنجل.

❁ دامبالاه Damballah : الإله الأفعى فى أساطير هايتى، يشكِّل مع زوجه أيدا قوس قزح رمز الاتحاد الجنسى.

---

(١) انظر : معجم أعلام الأساطير والخرافات : ٧، ٥٢، ٢٠، ٢٤، ٧٩.

(٢) انظر معجم أعلام الأساطير والخرافات : ٨١، ٩٥، ٩٨، ١١٦، ١٥٦، ١٦٧.

ومن الآلهة الثعبان فى أساطير العالم[1]:

❁ جورنونجان Gornungan : الأفعى الكونيَّة الَّتى تلفُّ العالم، وتهدِّد الآلهة.

❁ كيمبون Kimbon : الإله الثعبان الغامض الملامح فى أمريكا.

❁ مانازا Manasa : ربَّة الثعابين فى الأساطير الهنديَّة، تصوَّر أحيانًا على هيئة امرأة لها أربع أذرع، وتجلس على زنبق الماء، وتكسوها الثعابين.

❁ ندنجو Nedengo : الكائن الأعلى فى جزر فيجى، وهو يتقدَّم على جميع الأرواح، ويتصوَّره الناس بصورة أفعى كبيرة، ويسكن فى كهف فى جبل، وهو الخالق، وتحدث الزلازل من حركته.

❁ يورلنجور Yurulunggur : الثعبان الأكبر فى أساطير الأوستراليين الشماليين، لوَّثت امرأة ماء بحيرته بطمثا ؛ فاغتاظ، واحدث طوفانًا أغرق الأرضين جميعًا، ثمَّ ابتلع المرأة، وشقيقتها، وأولادهما.

❁ وفى عبادة مثرا Mithra الشهيرة إله الشمس، وقاهر الظلام، وإله العقود والاتفاقات والعدالة والحرب فى الأساطير الفارسيَّة، وهو محارب جبَّار، قتل الثور المقدَّس، وخلق من دمه جميع الكائنات الحيَّة من نبات وحيوان، والأسطورة تصوّره فى صورة أسد وجسد محاط بحيَّة ترمز إلى مجرى الشمس والزمان.

وعبادة مثرا هذه كانت شائعة بين جنود الدولة الرومانيَّة فى العصور الوسطى باعتبارها واحدة من ديانات الأسرار الجديدة التى تصور الصراع بين إله الخير وبين قوة شريرة[2].

❁ اليم Yam : إله المياه الجارية " البحار والأنهار "، والمجموعة لدى الكنعانيين، ويرمز له بلوياتان = الحية الملتوية ذات الرءوس السبعة والتنين وهو نظير تيامات " تهامة " البابلية، وبوسيدون الإغريقى ومن ألقاب هذا الإله " شفط نهر " = قاضى النهر[3].

---

(١) انظر معجم أعلام الأساطير والخرافات : ٢٣٥، ٢٨٠، ٣٠٣، ٣٢٨، ٣٧٢، ٣١٩.

(٢) تاريخ الفكر الحر ٣٥، وتاريخ سورية ١ / ٣٦٨.

(٣) راجع : العرب واليهود ١٢٩، ومعجم الحضارات السامية ٩٢٠.

وإذا تأمَّلنا ما جاء فى القرآن الكريم من حديث عن الحيَّة نجده لا يخرج عن تأييد النبوَّة، فى الدعوة لعبادة الله وحده، وبيان قدرة الله، فهو صانع المعجزات، ولمَّا كان القرآن الكريم مهيمنا على الكتب السماويَّة الأخرى فإنَّ ما جاء فيها من اتخاذ الحيَّة رمزًا للقدرة الإلهية، وعمل الخير فإنَّه يكون صحيحا، ومن أمثلة ذلك :

۞ الحيَّة النحاسيَّة الَّتى نصبها سيِّدنا موسى ﷺ لقومه للاستشفاء بها مما أصابهم بقدرة الله تعالى.

۞ نصيحة سيِّدنا عيسى ﷺ حواريه بالتشبه بالحيَّة فى اليقظة والتنبَّه، وهو قريب من معنى الوصف المأثور : " المؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ ".

وأمَّا الحيَّة فى أساطير الشعوب فهى رمز للكثير من المتناقضت، والقوى المتصارعة، ومن أمثلة ذلك :

۞ علامة للحياة إنَّه يجمع كلاًّ من مبدأىْ : الخصب المتعلِّق بأوزيريس، ومبدأ الموت ثمَّ التجدُّد الَّذى يعمل " ست " على انعاشه، وتأججه.

۞ يعتبر رمزًا جهنَّميًّا، ينتمى إلى العالم السفلى، والدنيوى، وهو ذو نفع وفائدة، وهو أيضًا ضار وشؤم، يأتى بالخير، ويسبِّب الهلاك، يحمى الآلهة والبشر، ويهاجمهم.

۞ ولد من بيضة كونيَّة على حافَّة العالم، وانقسمت البيضة عند ولادته إلى قسمين، وأصبح القسم الأعلى منها السماء، والقسم الأسفل الأرض.

ولو استقرأنا رمز الحيَّة أو الثعبان كما ورد فى الأساطير لتبيَّن لنا أنَّ الإنسان الأول كان يتخذ منهما رمزا للخلود أو الفناء، للموت أو الحياة، للحكمة أو العدوان... إلى غير ذلك من القيم المتناقضة والمعانى المتعارضة ؛ ومن هنا يتأكَّد أنَّ الحيَّة باعتبارها رمزا الشيطان فى قصة بدْء الخلق لابدَّ أنْ تكون راجعة فى أصولها إلى أسطورة من الأساطير، سواء أكانت الأسطورة السومريَّة كما يرجِّح العلماء، أو غيرها من الأساطير ولا يمكن أنْ تكون من مصدر إلهى.

أسطورة الحيَّة فى التراث العربى :

لم أجد فيما قرأت أثرًا لعبادة الحيَّة أو الثعبان من بين المعبودات الوثنية فى الجزيرة العربية، ويبدو أنَّ الأساطير المتعلقة بالحيَّة فى الثقافة العربية كانت متأثرة إلى حد كبير بقصص الأنبياء فى القرآن الكريم، وببعض القصص الأسطورى الإسرائيلى ؛ فإذا كانت اللعنة الَّتى حلَّت بالحيَّة اقتضت أنْ تزحف على بطنها فلابدَّ أنها كانت قبلا تسير على قوائم، ونجد فى كتائب الأوائل التصوَّر الآتى :

يقال : إنَّ الحيَّة كانت مثل الجمل، وكانت تطير، فدخل فيها إبليس، فطارت به حتَّى أدخلته الجنَّة، فأغوى آدم، فصيِّرت ملعونة، قال عدى بن زيد :

وَكَانَتِ الْحَيَّةُ الرَّقْطَاءُ إِذْ خُلِقَتْ

كَمَا تَرَى نَاقَةً فِى الْخَلْقِ أَوْ جَمَلاَ

قال : فعوقبت بقص جناحيها، وقطع أرجلها، وإعراء جلدها، وشقِّ لسانها، وإلقاء عداوة الناس عليها، ونُسِبَ الكذب والظلم إليها.

فقيل : أَكْذَبُ مِنْ حَيَّةٍ، وأظلم من حيَّة

وكذبها أنْ تنطوى فى الرمل على الطريق، فتصير كأنَّها طبق خيزران، ومنها حيَّاتٌ بيضٌ، تستدير فتحسب خلاخيل أو أساور، وذلك لتغرى الناس ؛ فتهلكهم.

وظلمها أنَّها لا تمرُّ بحَجَرٍ، فتدخله إلاَّ هرب صاحبه منه، وخَلاَّه.[1].

وقال ابن عباس والسُّدِّى : صارت عصا موسى حيَّة عظيمة شَعْرَاء، فاغرة فاها، ما بين لحييها ثمانون ذراعًا، وقيل أربعون، واضعة أحد لحييها بالأرض، والآخر على سور القصر[2].

وقال ابن كثير : لَمَّا ألقى موسى عصاه صارت حيَّة عظيمة ذات قوائم ـ فيما ذكره

---

(١) الأوائل ٤٤.

(٢) البحر المحيط ٤ / ٣٥٧.

غير واحد من علماء السلف ـ وعنق عظيم، وشكل هائل مزعج، بحيث إنَّ الناس انحازوا منها، وهربوا سراعا، وتأخَّروا عن مكانها، وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى فجعلت تلقفه واحدا واحدًا فى أسرع ما يكون من الحركة والناس ينظرون إليها، ويعجبون منها.[1].

ونقل القرطبى : أنَّ اجتماع السحرة كان فى الإسكندرية، فبلغ ذَنَبُ الحيَّة وراء البحيرة.[2].

قال السُّدِّى : لَمَّا عهد الله ﷻ إلى إبراهيم وإسماعيل أنْ طَهِّرا بيتى للطائفين انطلق إبراهيم حتَّى أتى مكَّة، فقام هو وإسماعيل، وأخذ المعاول لا يدريان أين البيت، فبعث الله ﷻ ريحًا يقال لها : ريح الْخَجُوج، لها جناحان، ورأس فى صورة حيَّة، فكنست لهما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتَّبعاها بالمعاول، يحفران حتَّى وضعا الأساس، فذلك حين يقول :﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾، وقيل : إنَّ تلك الريح كان اسمها السكينة لها لسان تتكلَّم به[3].

ومن الوجهة اللغويَّة الحيَّة : هى الحَنَش المعروف، واشتقاقه من الحياة، ويجوز أنْ يكون اشتقاق الحيَّة من حَوَيْت ؛ لأنَّها تتحوَّى فى التوائها، والمذكَّر والمؤنث فى ذلك سواء، على أنَّه قد روى عن العرب : رأيت حيًّا على حيَّة، أى : ذكرًا على أنثى، والْحَيُّوت : ذكر الحيَّات، وجمع الحيَّة حيَوَات.

قال الأزهرى : وللعرب أمثال كثيرة فى الحيَّة، يقولون :

- هو أبصر من حيَّة ؛ لِحِدَّة بصرها.
- هو أظلم من حيَّة ؛ لأنَّها تأتى جحر الضبِّ، فتأكل حِسْلَها، وتسكن جحرها.
- فلان حيَّة الوادى ؛ إذا كان شديد الشكيمة، حاميًا لحوزته.

---

(١) البداية والنهاية " ط / دار الكتب العلمية " ١ / ٢٣٩.

(٢) تفسير القرطبى ٧ / ٢٥٩.

(٣) تاريخ الطبرى ١ / ٢٥٢، ٢٥٣، والآية الكريمة من سورة الحج ٢٢ : ٢٦.

❁ وهم حيَّة الأرض ؛ إذا كانوا ذوى إرْب وشدَّة، لا يضيِّعون ثأرًا، ومنه قول ذى الإصبع العَدْوانى :

عَذِيرَ الْحَى مِنْ عَدْوَا ❁ نَ، كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ

❁ رأسه رأس حيَّة ؛ إذا كان مُتَوَقِّدًا شهما عاقلاً.

❁ فلان حيَّة ذكر ؛ أى شجاع شديد.

❁ ويدعون على الرجل فيقولون : سقاه الله دم الحيَّات، أى أهلكه.

❁ ويقال : رأيت فى كتابه حيَّات وعقارب ؛ إذا محَلَ كاتبه برجل إلى السلطان، ووشى به ؛ ليوقعه فى ورطة.

❁ ويقال للرجل إذا طال عمره : ما هو إلاَّ حيَّة،

ويقال للمرأة إذا طال عمرها : ما هى إلاَّ حيَّة ؛

وذلك لطول عمر الحيَّة ؛ كأنَّه سُمِّى حيَّة لطول حياته.

❁ وقال ابن الأعرابى : فلان حيَّة الوادى، وحيَّة الأرض، وحيَّة الْحَمَاطِ إذا كان نهاية فى الدهاء والخبث والعقل، وأنشد الفرَّاء :

كَمِثْلِ شَيْطَانِ الْحَمَاطِ أعْرَفُ[1].

ومن هنا نلاحظ أنَّ الأساطير العربية المتعلِّقة بالحيَّة تدور كلها حول الخيال الشعبى فى تضخيم الشىْء المخيف، ولا تكاد تخرج عن قصص الأنبياء والرسل.

---

(١) لسان العرب " حيا " ١٤ / ٢٢٠ـ٢٢١.